

وصايا الشيخ للشبان

لجناب العالم العامل الدكتور بريحنا ورتبات

من خطبة له تلاها في المدرسة الكلية السورية على طلبة العلم فيها

لا استطيع ان اشهد هذا المحفل الحافل وأرى امامي هذا العدد الكبير من طلبة العلم
 الا واذكر ان الحياة جهاد والناس في هذا الجهاد على اربع طبقات الأولى الاحداث
 الذين يتهيأون له . والثانية الشبان الذين ابتدأوا به . والثالثة الكهول الذين يجاهدون
 فيه . والرابعة الشيخوخ الذين فرغوا منه . واذكر ايضا ان بعض الحكماء الذين جازوا
 هذه الادوار وعرفوا شأنها بالخبرة والمراقبة قد خلفوا من الوصايا والنصائح للذين يبدؤون
 بالحياة ومعرفتهم بها قاصرة ما هو على غاية من الفائدة . واني رافع اليكم ايها الشبان بعض
 ما قالوه واوصوكم به حتى تكونوا كالسفينة التي تجوز البحار المتلاطمة بالامواج وتصل
 سالمة إلى المرفأ المقصود ولا تنكسر كما تنكسرت سفن كثيرة . وهذه الاقوال ممتدة من
 اول التاريخ المعروف الى الآن واقدمها رسالة وضعها امير من الدوله الخامسة المصرية قبل
 هذا العهد بنحو خمسة آلاف سنة يقول فيها ما ترجمته "الابن الصالح من نعم الله ان كنت
 حكيما رب ابنك في مضافة الله . اذا تعظم الانسان اذلة الله . اذا صرت عظيما بعد ان
 كنت ضعيفا وصرت وجيها في بلدك وجمعت مالا كثيرا وصرت سيدا منظورا فلا
 تستكبر بفنائك لان الذي اعطاك هو الله ولا تحقر من كان فقيرا كما كنت " . وهو كلام
 عيب قيل في زمان فحسب كاشيال وكانا نرتاب فيه لو لم يكن البردي المكتوب عليه من
 ذلك العهد محفوظا الى الآن في مكتبة باريز . وقام بعده بنحو الف سنة ملك من الدوله
 الثانية عشرة كتب حكما كثيرة لابنه اوسارناسن الاول ومن اقوال احد عماله التي
 لا تزال منقوشة على صخور مصر الى الآن نرى شيئا من قياسهم الاديبي في تلك الاعصر
 قال " لم ادخر شيئا لنفسي مما لغيري - لم اقر بيتي ولم اعظم امرلة " . ومن اقوالهم في ذلك
 الزمان ايضا " لم اكذب ولم اسرق ولم ازن ولم اقتل ولم اكسل ولم اسكر ولم اناثق ولم
 اضرب احدا خفية ولم ادنس ضميري لارضاء غيري . لم اعظم المسكين ولم اكلف احدا الا
 وسعة ولم ابع لسيد ان يجور على عبده ولم اكن سببا لبكاء احد او هلاكا . اعطيت خبزا
 للجائع وماء للعطشان ولياما للريان وماوى للغريب " . وقام بعد ذلك بنحو الف سنة
 سليمان الحكيم وكتب امثاله المعروفة التي تحث الشبان على طلب العلم والجد في العمل

وتقوى الله وعدم مجازاة الخطاة والتحفظ من ملق الاشرار . وقام بعدهم قرب التاريخ
المسيحي سنكا الفيلسوف واوريليدوس الامبراطور الروماني ثم حكاه العرب الذين اقوالهم
للشبان وامثالهم واشعارهم معروفة عندهم

والامر الاول الذي انبهكم اليه هو ان كل ما يتعلق بحياة الإنسان من حيث تصرفه
ونجاحه وما يناله من المقام والاسم بين الناس عائد الى صفاته اي الى الخلق المفقور هو
عليه والطباع التي يجري عليها وهو ما اشار اليه الشاعر في قوله

كل امرء متصرف بطباعه ليس امرء الا على ما يطبع

وعلى ذلك يكون حسن السيرة اذا كان حسن الصفات ووردي التصرف اذا كان ودي
الخلق والسجية مصداقاً لقول العامة كل اناء ينضح بما فيه اي ان العلاقة لازمة بين ما يكون
الانسان عليه باطناً وما تكون عليه اعماله وظواهره

ومن المتيقن ان الخلق شيء نام وكل فكر وشعور يضيف اليه شيئاً ما . فان خالجت
عقولكم وقلوبكم الامور الرفيعة الجليلة صارت صفاتكم حسنة محمودة وان خالجتها الافكار
القصيصة صارت صفاتكم قبيحة مكروهة . فلكم ان تبثوا في انفسكم بناءً سنياً او حقيراً كاتناثون .
ثم قد تكون الصفات خفية مكتومة ولكن الغالب ان الظاهر يدل على الباطن وان الوجه
والحركات الخارجة تدل على ما وراءها من سجايا النفس . ومهما حاول الانسان ان يستر
قبائحهم برداء الفضل لم يخف امره على معارفه ولقد صدق من قال

ثوب الرياء يشف عما تحته فاذا اكتشيت به فانك عار

وصفاتنا هي كل ما يبق معنا بعد الموت . قيل ان الاسكندر الكبير اوصى ان يخرج
بداه من الكفن عند دفنه ليرى الجميع ان الذي ملك الارض باسرها لم يأخذ معه شيئاً .
هكذا نحن نذهب لا بما كسبناه من المال بل بما ربيناه في انفسنا من العزة وكرم الاخلاق
وطهارة القلب او اللؤم والفساد والحساسة

ولما كان الانسان عضواً في العائلة وفي الهيئة الاجتماعية كانت له علاقة شديدة
باخوانه ينشأ منها بالضرورة ان ما يعمل الواحد منهم يؤثر في الآخر فينتشر من كل
انسان شيء من التأثير الى الذين حوله كثر او قل ظهر او خفي صلح او فسد ويكون كل
فرد من افراد الناس اماماً من المصلحين الذين يثبون الخير في الارض او المفسدين الذين
يعثون فيها ويملاؤها بالقيح . وكثيراً ما يكون هذا التأثير على سبيل القدوة التي لا يسع
لها صوت ولكنها تعمل في النفس خفية وتكسبها الاخلاق الكريمة اذا رأت الصدق

والاستقامة والنزاهة والعفة والاجتهاد ظاهرة في صفات الذين يقتدى بهم . والتاريخ مشحون بأسماء الابطال والقواد والعلماء والصالحين الذين لم يقتصر عملهم على اهل زمانهم بل امتدت شهرتهم مدى الاجيال وكانت سيرتهم مثالا وقدوة للذين بعدهم

ولصفات الانسان علاقة شديدة بالنجاح . ويراد بالنجاح بلوغ اعظم ما يمكن من السعادة في هذه الدنيا . غير ان ما يعدّه البعض نجاحاً قد يكون في الحقيقة خيبة فان الرجل الذي يربح مالا كثيراً بالحرام او بنسارة عافيته او خيانة اهله لا يقال انه من اهل النجاح بل اذا ربح العالم كله وخسر نفسه لم يكن من الراجحين . وكثيراً ما يظهر الامر خيبة ويكون في الحقيقة فوزاً عظيماً ولما كان النجاح مبتغى كل احد فلا بد من ذكر بعض شرائطه . واول ذلك الجد

اي العمل الدائم وهو ما اشار اليه الشاعر في قوله

الجد في الجد والحِرمان في الكسل فانصبَّ نُصبٌ عن قريب غايبة الامل

وهو شرط لازم في كل مكان وزمان ولكن على الخصوص في هذه الايام حيث اشتدت المناظرة في العلم والتجارة والصناعة حتى لم يبق سبيل للنجاح الا للجهتد فقط . ولا يقوم مقام الجد شيء لان الذكاء الذي يحسبه قوم كافياً كان لا للنجاح وهم لا ينجحون الا المجهين بانفسهم . وقد ذكر القدماء لذلك حكاية معروفة وهي ان ارنبا وسلمحفاة تراهنا على سباق ولما كان الارنب وانقفا بسرعة جريه تقاعد ونام واما السلمحفاة فلم يكن لها مع بطء حركتها الا الكد المتصل وكان ذلك سبب فوزها . ثم ان اخذق الناس هم الذين اشتهروا بالجد العظيم والعمل الدائم وما بلغ قط مقاماً رفيعاً الا من اعتزل القول بالسعد والنحس وقاوم المشاق التي عارضته واخترق صفوف ما عاده من صروف الدهر الى ان نال المطلوب وقال مع الشاعر

لاستسبان الصعب او اذرك المنى فما انتقلت الامال الا للصابر

وكيف كان الامر ابعدا عن البطالة والكسل فها مفسدة اكل انسان وسبب لشقاء الشبان الاغنياء الذين لا يعرفون كيف يشغلون الوقت الا بان يلقوا بانفسهم الى التجارب والفحشاء والمرض والملاك . وامثلة ذلك كثيرة شهيرة عبرة لمن يعتبر مثبتة لقول من قال

ان الشباب والنراخ والجدد مفسدة للرءى ائى مفسده

ويشترط ايضاً للنجاح ان يكون لكم غرض خاص من اغراض الحياة تجعلونته ابداً نصب العين . سواء كان ذلك صناعة او تجارة او علماً . لانه من الواضح انكم اذا فرغتم قوتكم في اشياء كثيرة كنتم ضعفاء فيها جميعاً واذا جمتموها في شيء واحد كنتم اقوياء فيه . نعم لا بد لكم من الدرس الواسع وتحصيل المعارف العامة لانها تهذب عقولكم وتزيدكم

قوة في مباشرة الاعمال ولكن لا بد ايضاً من صرف قواكم الى غرض واحد تختارونه وتوقرون اليه. غير ان هذا الاختيار لا يكون دائماً في طاقة الانسان بل كثيراً ما يندفع فيه باتفاق الاحوال. ولكن عليه ان يتقن مهنته مها كانت فلا ترضوا الا بما يمكن من افضل وسائل العلم للقيام بها حتى القيام لانه اذا حدث نقص من هذا القيل عارضكم الدهر وحل بكم النشل والاسف. ومن اقوال الحكماء لا تدخان امرًا لا تكون ماهرًا فيه وقولهم ايضاً لا تطلب سرعة العمل واطلب اجادته فان الناس لا يسألون في كم فرغت منه وإنما ينظرون الى اتقائه وجودة صنعه. ثم اذا اخترت حرفة وجمعتموها غرض الحياة وتعلمتموها حتى العلم فالزموها بلا انقطاع الى النهاية لانكم اذا تقدمتم عنها او بدلتها بغيرها كانت النتيجة غالباً خيبة الامل

وقل من جد في امر يحاوله واستعمل الرنق الأناز بالظنير

غير انه اذ كان جدكم في العمل عظيماً ومهارتكم في الصناعة شهيرة ومواظبتكم على اعمالكم غير متقطعة ولم تكن صفاتكم الصدق والاستقامة والطهارة لم تستفيدوا شيئاً لانه كما يغرق السفينة ثقب واحد كذلك قد شئ من هذه الاوصاف كافي لاسقاطكم وتعطيل آمالكم. ألم تروا البرة بعد المرة ان الكاذب والخائن والسكران والمقامر والفاقد والمعظم لا يطغون. ومما كان طريقكم مظلماً وعراً طويلاً لا تخافوا ولا تملوا ولا تعتمدوا على نسيب او صديق وسواه احبكم الناس او ابغضوكم وسواه تعلقوكم او احقروكم الزموا ابداً طريق الاستقامة والصلاح وتوكلوا على الله ولا تخافوا احداً

واما المال الذي يجذب جمهور الناس في كسبه فهو عبارة عن كل ما يمكن تحصيله بالشراة وهو قوة عظيمة يتصرف فيها الانسان للغير او للشركاء يشاء. فاذا ناله بالخلال وصار بدنياً اي مكتفياً بما عنده لا يحتاج الى التوسل القديم وبذله في وسائل الراحة والعيشة الهيئة وجعل منه نصيباً للساكنين كان خيراً عظيماً خلافاً لما اذا ناله ببعض طرق الحرام او صار له الماك يعبده او وسيلة للبخس والتجور او ولعاً بلبه عن مصالح نفسه العليا ويسلب منه الانسانية ويسد اذنيه عن صراخ المسكين فيكون عند ذلك وبلاً كبيراً له في هذه الدنيا والآخرة. فهو الذي يرفع التمدن ويشيد اعمدة العلم ويبنى المدارس والمستشفيات وبيوت الفقراء ويرقي الانسان المحسن الى مقام علي في تاريخ الجود والفضل والكرامة وهو الذي يهدم الآداب ويملا القلوب حزناً والبيوت بكاءً ويحبط اخلاق الرجل حتى يصير بخيلاً ذمياً او مسرفاً فاسقاً مكروهاً عند الله والناس (ستأتي البقية)